المراهقون ومؤسسات التنشئة الاجتماعية

يتم اكتساب القيم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، التى يتحول الفرد عن طريقها إلى كائن اجتماعى مشارك فى المجتمع، وترجع أهمية التنشئة إلى أنها تهدف إلى تلقين الطفل وتعليمه ما هو موجود من عادات وتقاليد مختلفة، وإدماج نسق للقيم في ذوات الأفراد، أى إكساب الطفل ثقافة المجتمع، ومن أهم مكوناتها القيم، وتشمل التنشئة الاجتماعية كافة الأساليب التى يتلقاها الفرد من الأسرة خاصة الوالدان، المدرسة والأصدقاء، وسائر المحيطين من أجل بناء شخصية نامية متوافقة جسميًا، ونفسيًا، واجتماعيًا، وذلك فى مواقف الرضاعة والفطام والغذاء واللعب والتعارف والصراع مع الآخرين فى كافة مواقف الحياة من تحصيل أو عمل أو ترويح.

ويتفق الاجتماعيون والتربويون على أن التنشئة الاجتماعية تتم من خلال مؤسسات معينة فى كل مجتمع، تقوم بتنشئة الأفراد وتثقيفهم وتعليمهم السلوك المقبول اجتماعيًا، إضافة إلى تلقينهم المعارف والعقائد التى تشكل هويتهم الثقافية والحضارية ويقوم عليها أمر دينهم.

وبالطبع لا تقتصر عملية التنشئة الاجتماعية وبث القيم على الأسرة، وإنما يقوم بها العديد من المؤسسات الاجتماعية من أهمها: جماعة الرفاق والمدرسة ووسائل الإعلام ودور العبادة وغيرها، وتقوم هذه المؤسسات ببث ما يرتضيه المجتمع من قيم؛ حيث تهدف فى النهاية من هذه العملية إلى خلق ما يسمى بالشخصية المنوالية للمجتمع، وعلى الرغم من أن هناك قدراً من التباين بين شخصيات أفراد المجتمع، وعلى الرغم من أن حدود ما هو مقبول وما هو غير ذلك تختلف من منطقة لأخرى داخل هذا المجتمع، فإن التنشئة الاجتماعية التى يقوم بها وكلاء الثقافة مناط بها – رغماً عن هذا كله – خلق إطار مشترك يتحدد من خلاله للمجتمع ملامحه المميزة.

وترجع أهمية التنشئة الاجتماعية إلى أن البناء الاجتماعى يعمل من خلالها على تحقيق التوازن بين التأثيرات وأساليب الضبط الاجتماعى لدى الأفراد أعضاء

المجتمع، إلى جانب العمل على إيجاد التوافق بين حاجات الشخصية ومطالب البناء الاجتماعى؛ لأن التنشئة هى عملية تعلم بالمعنى العام نهدف من خلالها إلى إعداد الطفل ثم المراهق فالراشد؛ للاندماج فى أنساق البناء والتوافق مع المعايير الاجتماعية المقبولة، ومطالب الأدوار الاجتماعية واكتساب قيم المجتمع.

لذا فإننا فى أشد احتياج لإعادة صياغة شبكة العلاقات بين المراهق والآخر الذى قد يتمثل فى الآخر (القريب المباشر الأول: الأب، الأم، الإخوة، ... إلخ)، أو يتمثل فى الآخر (القريب المباشر الثانى: المدرس، الصديق، الحبيب، ... إلخ)، وهذه الصياغة فى احتياج إلى معايير جديدة فى التعامل بين الهويات الفردية والجماعية أو المجتمعية.

ولأن البحث فى الأرضية المشتركة مع الآخر، واكتشاف مساحة الاتفاق مع الغير أفضل بكثير من تغذية مناطق الخلاف وتجسيد أسباب التباين؛ فإن صورة الآخر وأساليب التعامل معه إنما تتشكل عبر عمليات التدريب الاجتماعى التى تقوم بها مؤسسات المجتمع وعلى رأسها السلطة.

وسوف نعرض فى السطور القادمة لمؤسسات المجتمع التى يقع عليها عبء تشكيل وعى الفرد بالآخر بما يتناسب مع مراحل عمره، على اعتبار أنها جميعاً تصب فى إطار عملية التطبيع الاجتماعى أو التنشئة الاجتماعية التى كان ينظر إليها فى الماضى على أنها مرتبطة بتعليم وتربية الصغار فقط، فى حين أنها كمصطلح حديث تعنى تنشئة الصغار والكبار معًا أى اعتبار التنشئة عملية مستمرة منذ الميلاد وحتى الممات؛ لأنه من الواضح أن خبرة التطبيع الاجتماعى للشخص فى مرحلة الطفولة لا تستطيع إعداده لكل الأدوار التى يتوقع منه أن يشغلها فى حياته القادمة، بل إن هذه العملية خلال سنوات النضج يجب أن تكون مطلباً أساسياً فى المجتمعات الدينامية الحديثة وهو الآن ما يلتقى مع الهدف البعيد للتربية المتمثل فى ما يسمى حالياً بفكرة التنشئة الاجتماعية للكبار، وهى التربية مدى الحياة لكى يتوافقوا مع الظروف الجديدة؛ لكى تكون الأدوار واضحة بين الفرد، والأسرة، والجماعة، والمجتمع، وعدم تعارضها مع أدوار أخرى.

فالتنشئة الاجتماعية تتضمن عمليات متعددة أهمها التعلم الاجتماعى والتثقيف والتوافق الاجتماعى والانتقال الثقافى، وهى أيضاً إكساب الفرد طفلاً أو راشداً سلوكاً ومعايير وقيماً من خلال مؤسسات عديدة وهى: الأسرة – المدرسة – جماعة الأقران – وسائل الإعلام السمعى والبصرى التقليدية والحديثة، والمؤسسات الأخرى: المساجد، والكنائس، والأحزاب السياسية.

وواقع آخر يرصده المفكرون والعلماء والباحثون فى مجالات العلوم الإنسانية، أن مؤسسات التنشئة جميعها تواجه العولمة فى جانبها الاجتماعى والثقافى والاقتصادى حيث تسعى – العولمة إلى تفكيك الأسرة وإفساد الأفراد واختراق وعيهم واقتلاع الجذور التى تربط الفرد بعائلته ووطنه وبيئته وتراثه الوطنى والقومى، وإيجاد إنسان عولمى النزعة والتطلع لا يرتبط بوطن ولا دين ولا قومية، وطنه العالم كله.

وهو ما يدعونا الآن إلى القول بأن مقاليد التنشئة الاجتماعية تكاد تفلت من أيدى هذه المؤسسات لاسيما وسائل الإعلام البصرى والسمعى فى العالم العربى، ومن هنا يمكن أن نقدر خطورة الآثار النفسية والاجتماعية التى تترتب على استحواذ (الآخر البعيد) للشباب والمراهقين والصغار من خلال فرض نموذجه العولمى – الأمريكى – بقوة سيطرته وتمكنه من وسائل الإعلام التى لا يخلو بيت من أكثر من مفردة من آلياتها (تليفزيون – دش – كمبيوتر ... إلخ).

وسوف يتم عرض مؤسسات التنشئة الاجتماعية فيما يلى:

(١)الأسرة:

تعتبر الأسرة أهم الجماعات الأولية التى تتولى غرس قيم الثقافة العامة للمجتمع ككل، وفى نفس الوقت غرس القيم التى تعتنقها الأسرة ذاتها، والتى تتضمن كل أساليب الحياة والتفكير والتعامل مع الأشخاص والمواقف والأشياء.

حيث تعتبر التنشئة الاجتماعية مهمة رئيسية من مهام الأسرة والتى تقوم بها تجاه الطفل وخاصة مسئولية الوالدين؛ ففى الأسرة المرعى والمهد الأول للطفل

تتضح سلامة وعدم سلامة سلوك الفرد والجماعة؛ فالشخصية السوية أو غير السوية هى نتاج التفاعل الذى يحدث للفرد من خلال الخبرات الأولية التى يتلقاها فى مراحل حياته الأولى من الأسرة.

وتنقل الأسرة إلى الطفل كافة المعارف والمهارات والاتجاهات والقيم التى تسود المجتمع بعد أن تترجمها إلى أساليب عملية التنشئة الاجتماعية؛ فتعمل بذلك فى تنشئة وتكوين شخصيته فى اتجاهين متداخلين أحدهما تطبعه بالطباع التى تتمشى وثقافة الأسرة ذاتها.

فعن طريق الأسرة يكتسب الأبناء القيم الأساسية والدعامات الأولى لبناء ذواتهم وشخصياتهم فى محيط الأسرة، وتمثل الأسرة – فى هذا الصدد – ثقافة المجتمع بصفة عامة وتمثل الثقافة الفرعية التى تنتمى إليها بصفة خاصة، وعلى هذا فإن الأسرة تعمل بأساليبها التربوية المختلفة على اكتساب الأبناء السلوك الذى يتوافق مع القيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية التى تعتنقها وتعمل بها.

وأخيراً تعهد الأسرة إلى أساليب الثواب والعقاب فى تأديب أبنائها بإثابتهم على حسن سلوكهم بما يتمشى مع أنماط سلوكها ومع قيمها العليا، أو بمعاقبتهم على سوء سلوك لهم يتعارض مع أنماط سلوكها ومع قواعدها الأخلاقية؛ فتدعم بهذه الأساليب السلوك الذى يتمشى مع القيم الأساسية التى تدين بها وتمنع السلوك الذى يتعارض معها، وفوق هذا فهى تستخدم الأساليب اللفظية التى تساعد الطفل على أن يتبنى الاتجاهات والقيم التى تمكنه تدريجيًا من أن يسلك السلوك المرغوب فيه من تلقاء نفسه؛ ومن ثم فإن التناسق بين أساليب التربية والتهذيب المختلفة مع القدوة فى بيئة الطفل أمر بالغ الأهمية لنشأة الطفل وتكامل شخصيته.

(٢)المدرسة:

المدرسة كبيئة نقية أوجدها المجتمع بهدف التربية تحاول أن تكسب أفرادها القيم الإيجابية من خلال المناهج التى تقدمها، بل من خلال تفاعل المتعلمين مع

المعلمين وإداريّ المدرسة، وهذا كله يساعد فى إدماج المتعلمين فى قيم ومعايير واتجاهات محددة تتخطى الاختلافات الطبقية وتساعد فى تنمية القيم مما يشوبها، وغرس قيم جديدة وتبنى نسق قيمى مرغوب لدى المتعلمين، فمن خلال التفاعلات اليومية فى الحياة المدرسية يتعلم الفرد قيم احترام الوقت والالتزام بالمواعيد، والقيم المرتبطة بالدور والمكانة، ولكن المدرسة أصبحت هى الأخرى عاجزة عن أداء دورها التعليمى والتربوى فى ظل التغيرات الاقتصادية فى المجتمع المصرى، ليس هذا فحسب، بل أسهمت المدرسة فى تواجد الصراع القيمى لدى الشباب، نتج عن التعارض بين سلوكيات القائمين على العملية التعليمية والتربوية باعتبارهم المثل والقدوة، وبين القيم والمعايير الاجتماعية التى يتم تلقينها للطالب، ومن هنا ينشأ الصراع القيمى ليس هذا فحسب بل يضيع المثل والقدوة أيضاً.

ولذا نحتاج إلى نوع من التعليم يتصل بالجذور الثقافية للأمة ويسعى فى نفس الوقت لتجديد وتحديث الجوانب الثقافية، ومن خلال التعليم ينبغى أن نصون الذاتية الثقافية لأمتنا من أجل مواجهة التحديات الثقافية العالمية، وكيف نتعامل مع الترسبات التراثية الثقافية حتى يمكننا مواجهة الثقافة الغربية.

كما يجب أن يكون جو المدرسة جواً اجتماعيًا صالحًا بعيدًا عن الاستبداد والإرهاب وتركيز السلطة فى يد واحدة، وأن تكون سياسة المدرسة مبنية على التوجيه والإرشاد المقرونين بالمحبة والعاطفة، وفهم نوازع المراهقين ودوافعهم دون اللجوء إلى قمعها بالقوة والقسوة، بل بتحويلها إلى نشاطات بالرفق واللين والحكمة، وأن يكون الأسلوب المتبع مع المراهقين هو أسلوب واحد معروف والابتعاد عن الأسلوب المتذبذب بين اللين والقسوة، كما أنه يجدر بالمدرسين والإداريين فى المدرسة أن يُشعروا المراهقين بأنهم القدوة فى السيرة والأخلاق حتى لا ينهار الرمز الذى يؤمنون به.

ومن أجل مصلحة المراهق يمكن للمدرسة أن تستعين ليس بالأهل فقط، بل بذوى الخبرة جميعًا والتنسيق مع المؤسسات التى تعنى بتمضية أوقات الفراغ المفيدة (كالأندية والمكتبات) وكذلك قاعات المحاضرات، والسينما، والمسرح

المدرسى) وأن تعمل جميعها ضمن إطار التعبئة العامة لحشد جميع النشاطات التى تخدم المراهقة وتعمل على احتوائها وتوجيهها توجيهاً سليماً.

(٣) جماعة الرفاق:

تلعب جماعة الرفاق دوراً هامًا فى نمو شخصية المراهق وتربيته، وتوفر له مجموعة من القيم والاتجاهات الخاصة بجنسه وسنه، وتنمى لديه استقلالاً عاطفياً من أسرته، فمن خلال جماعة الرفاق يتشرب المراهق القيم الأخلاقية السائدة فيها، ولهذا يقع على أولياء الأمور مسئولية التأكيد على أهمية اختيار المراهق للأقران الذين ينضم إليهم، وإذا ما قامت كل أسرة بتزويد مراهقيها بالقيم الأخلاقية السليمة فإن جماعة الأقران التى ستختارها لأبنائها ستدعم هذه القيم.

ومن الأسباب التى تبلور شخصية وسلوك الفرد اكتسابه مجموعة من المعلومات والخبرات والتجارب من بيئته الاجتماعية، واحتكاكه مع جماعة الرفاق وحصوله على صور وانطباعات عقلية ذهنية لها الأهمية فى تفسير الحوادث والأشياء المحيطة به، مع اعتقاده بمجموعة من القيم والمقاييس التى تعلمها من وسطه الاجتماعى، كما أن طبقته الاجتماعية والجماعات والمؤسسات الاجتماعية التى ينتمى إليها دائمًا تزوده بخصال وصفات معينة من الأخلاق والسلوك والمبادئ والغايات التى هى سبب حركته ونشاطه واتصاله مع الآخرين.

(٤) وسائل الإعلام:

تختلف عملية التنشئة الاجتماعية من حيث الوسائل المستخدمة فى غرس معايير الثقافة فلم تعد تقتصر على دور كل من الأب والأم والمدرسة وجماعة الرفاق، بل صاحب كل ذلك التطور العلمى والتكنولوچى الذى تميز به عصرنا الحديث فى وسائل الإعلام والذى أصبح من أبرز مظاهر التكنولوچيا الحديثة.

ويعد التليفزيون أهم عوامل التنشئة الاجتماعية؛ حيث إنه معلم أساسى للقيم والاتجاهات وأنماط السلوك المختلفة، كما أنه يقدم العديد من المعارف والمعلومات بالإضافة إلى تقديم جوانب مختلفة من الثقافة وغيرها من الرموز الثقافية.

ويرى العالم الاجتماعى الأمريكى «تالكوت بارسونز» أن التنشئة هى عملية تعلم تعتمد على التلقين والمحاكاة والتوحد مع الأنماط العقلية والعاطفية والأخلاقية عند الطفل والراشد، وهى عملية تهدف إلى إدماج عناصر الثقافة فى نسق الشخصية.

هذا ولقد سُئلت طفلة عن مدى ارتباطها بالتليفزيون، فأجابت بأنها تعتبر التليفزيون صديقة لها، أو كأنه فرد من أفراد الأسرة، وتحس بالوحشة إذا لم تره.

وقد أدرك النفسانى الفرنسى «هنرى فالكون» هذه الظاهرة التى أفرزها التليفزيون فكتب فى مجلة الطفولة «Emface»: فى الماضى كان الوالدان فى العائلة والأساتذة فى المدرسة يحتكرون التربية، ولكن لابد أن يعترفوا حاليًا بوجود تأثيرات خارجية.

ويشكل التليفزيون على حد تعبير الباحثة النفسية «مارى شومباردى لوى» مدرسة موازية تضاف إلى العائلة والمدرسة والجيران، ولم يعد الوالدان يمثلان النموذج بالنسبة للطفل والمراهق، وأصبح بطل المسلسلات التليفزيونية هو القدوة والمثل الأعلى.

وتقول إحصائية ألمانية أن الأب الألمانى يمضى ٣ دقائق فى اليوم متفرغًا لولده، بينما يتفرغ لمشاهدة التليفزيون لمدة ٣ ساعات، ومن ثم أعتقد أن الابن (الطفل أو المراهق) قد يتفرغ ضعف هذه المدة! هذا يعني أن التربية التقليدية التى كانت تقول إن الطفل والمراهق يبني شخصيته عبر ثقافتين الأولى فى المنزل والثانية فى المدرسة تتهاوى؛ فالمنزل أو الأسرة تتخلى عن دورها للتليفزيون الذى يقوم بدور الوالد والأخ الأكبر لملايين الأطفال والمراهقين، ولعل هذا ما دفع أحد العلماء إلى القول إن الجيل الجديد ينشئه ثلاثة آباء: الأم والأب والتليفزيون.

وتقول الباحثة الكندية «K. Taggart»: إن القيم التقليدية التى تبثها الأسرة فى الأطفال آخذة فى الضمور والاضمحلال لتحل محلها قيم تليفزيونية.

وبذلك فإن عملية التنشئة الاجتماعية التى يقوم بها الوالدان، وهى من أهم وظائفهما، إلا أن التليفزيون أصبح له دوره فى مجتمعنا من خلال نقل القيم

الثقافية والعادات والتقاليد إلى الأطفال والمراهقين فى الأسرة، وساعد فى ذلك ما اكتسبه إياه من مكانة؛ فقد قل عدد الساعات التى يقضيها الوالدان مع أطفالهما؛ فبعد أن كان الطفل ينام على حكايات وقصص الأم أو الجدة أصبح ينام وهو يشاهد التليفزيون وبرامجه، التى تحمل له غالبًا قيماً وعادات وتقاليد لا تستطيع الأسرة التحكم فى مضمونها ولا فى مشاهدة الأطفال لها؛ فمعظم الأسرة قد تنازلت أو استقالت من بعض أدوارها فى التنشئة الاجتماعية لهذا الجهاز الجديد «التليفزيون»، وفقد الآباء قدرتهم على توجيه الأبناء وفلت زمام التلاميذ من أيدى المعلمين؛ فأصبحوا عاجزين عن تعليمهم مبادئ الأخلاق والقيم والسلوك الاجتماعى المقبول، وفقد علماء الدين قدرتهم على شد انتباه الجماهير والتأثير فى عقولهم ووجدانهم.

مما سبق يتضح أن التليفزيون يعتبر أهم المؤسسات الثقافية والاجتماعية فى المجتمع، حيث إنه يسهم إسهامًا كبيراً فى تكوين اتجاهات وقيم الإنسان عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية، كما أنه أداة فعالة فى تغيير هذه القيم والاتجاهات والاستعداد للعمل عند الفرد.

وخلاصة القول، إن بناء المجتمع يعمل من خلال مؤسساته المختلفة على استيعاب الأفراد لقيمه ومعاييره، بما يجعلهم أكثر ملاءمة وقابلية للحياة مع الآخرين فى المجتمع، وبما يساعدهم على القيام بأدوارهم الاجتماعية المتباينة بعد تأهيلهم لها، وتغير أساليب تنشئة الطفل عادة لتوافق التغير الحادث فى الأنساق المتباينة المحيطة بالفرد؛ حيث تلعب الأنساق الاجتماعية دوراً هامًا فى تشكيل أساليب التنشئة وتعديلها، فهناك عوامل أيكولوجية اقتصادية سياسية دينية تؤثر فى عملية التنشئة، ويظهر التباين فى أنماط التنشئة من مجتمع لآخر بل وبين قطاعات المجتمع الواحد؛ وذلك بسبب التغيرات التى تؤثر فى قيم التنشئة الاجتماعية سياسية كانت أم اقتصادية فى المجتمع، والفاعلية التى تعزى لأى من مؤسسات التنشئة الاجتماعية كالأسرة والمدرسة وبيئة العمل، أو بسبب التغيرات التى تحدث فى الإطار الاجتماعى، والثقافى العام.